

أو خبط النهايات). وتنتظم كل حركة في فقرات قصيرة غالباً، ومرقمة جميعاً، سوى فقرات (المقدمة أو الخاتمة) التي حملت هاته العنوانات (أو هم - أو هن - أو المخيم)، مضاعفةً بابتداء كل منها بـ (أو) احتمالية الحركة كلها كمقدمة أو كخاتمة، فالفقرة الأولى والثانية تخصّان مفرداً وجمعاً، أما الفقرة الثالثة فتحدد الاحتمالية بفضاء المخيم، وتسمي المرأة (سراب)، وتطلق متواليّة لا متناهية من البدايات، والنهايات، ما دامت المقدمة يمكن أن تكون خاتمة وبالعكس. وليست هذه المتواليّة غير دم ينزّ ودروب مهتوكة وتجاويد للمخيم وحدود صقيلة وحفر وأسلاك شائكة و (ثعالب) تبت عيونها في (جبل الحليب)، وحيث "الأعناق جذوع من خشب أصم، تنتقل الجذوع في الأزقة مثل الروائح الآسنة، تلهو بأعطيات الثعالب وتبتسم، والثعالب المتسيدة هي النديم والوسادة الطرية، الحلم والفصول، المسافات إلى أسرة العشق" (ص 11).

إثر ذلك يشتبك - وبجزافية أحياناً - حاضر السرد بالماضي في فضاء السفينة، ثم ينفرد بالماضي في متواليّة ذكريات سراب وخلييل بين فضاء المخيم وفضاء موسكو، لينشب الماضي كحاضر في فضاء المخيم، وهنا تأتي الحركة الأطول في الرواية، ثم تكون العودة إلى السفينة وقد انتهت رحلتها ورمت بسراب في طريق العودة إلى فلسطين عبر صحراء سيناء. وللماضي إذن جلّ حركات الرواية، مستقلاً أو عبر الحاضر، محمولاً على الذاكرة ومتشظياً بها. لذلك تبدأ الرواية بهذه العبارات: (على نصف زمن أو على آخره تفتح درباً بلا مسافة. على نصف زمن أو على أوله يزخ الفضاء..). وبالعبارات المتمحورة على الزمن تبدأ الفقرة الثانية (ركضت خارج الزمن فتدافعوا راكضين) والفقرة الثالثة (الزمن ينفث ضباباً في المرايا). وفي هاتين الفقرتين نرى المرأة (سراب) تؤيد الزمن والزمن يتقياً ظلالاً، كما نرى الثعالب تذرو النهارات والليالي وتتقفي الأمس والقادم. وما إن تنتقل الرواية من المقدمة (أو الخاتمة) حتى تعاجلنا بالصور الموجهة التي تستوطن الأسئلة، والأسئلة تصمّ. وسرعان ما يهتف (خلييل الحطيني) على السفينة: (تبارك النسيان) مردداً ما دوى في صدر المقدمة (أو الخاتمة) وما قفلها.

لكن النسيان لو أمكن لاستحالت الرواية. لذلك تنهمر على خلييل ذكريات بحيرة طبرية وحب الدوم، كما تنهمر على سراب ذكريات استشهاد أبيها وهي في الثامنة. ومن هذه البدايات المبكرة تمضي كما يمضي خلييل، كل في وحدته على السفينة، إلى ذكريات الدراسة في موسكو وشارع أرباب والسكن الجامعي